٥٧ – باب القناعة والعَفاف والاقتصاد في المعيشة والإنفاق وذم السؤال من غير ضرورة

قَالَ الله تَعَالَى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا} [هود: ٦]، وقال تَعَالَى: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} [البقرة: ٢٧٣]، وقال تَعَالَى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: ٦٧]، وقال تَعَالَى: {وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ [ص:١٨١] مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ} [الذاريات: ٥٦ – ٥٧].

==========

قَالَ الله تَعَالَى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) يخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها، وبريها.

والرزق: ما يسوقه الله لخلقه ليقيم به شؤون حياته.

قيل لأبي أسيد: من أين تأكل؟ فقال: سبحان الله والله أكبر إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد.

وقيل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: من عند الله؛ فقيل له: الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء؟ فقال: كأن ما له إلا السماء يا هذا، الأرضُ له والسماءُ له؛ فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض؛ وأنشد:

وكيف أخافُ الفقرَ واللَّهُ رازقي. . .ورازق هذا الخلق في العُسْرِ واليُسْرِ

تَكَفَّلَ بالأرزاقِ للخلقِ كُلِّهِمْ. . .وللضَّبِّ في البيداءِ والحُوتِ في البحرِ

من فوائد الآية :

١ – أن الله متكفل كل دابة على وجه الأرض.

٢ – أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

٣ – أن الرزاق هو الذي يستحق العبادة والخضوع.

٤ – على الإنسان أن يطمئن، فإن الله قد تكفل برزقه.

وقال تَعَالَى (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) .

(لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) يعني: المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله، وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم.

– قال القرطبي: وإنما خصّ فقراء المهاجرين بالذكر لأنه لم يكن هناك سواهم وهم أهل الصُّفّة وكانوا نحواً من أربعمائة رجل، وذلك أنهم كانوا يَقْدَمون فقراء على رسول الله ﷺ، وما لهم أهل ولا مال فبُنيت لهم صُفَّة في مسجد رسول الله ﷺ، فقيل لهم: أهل الصُّفَّة.

قال أبو ذَرّ: كنت من أهل الصّفة وكنا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله ﷺ فيأمر كلَّ رجل فينصرف برجل ويبقى مَن بقي من أهل الصفة عشرة أو أقل فيؤتَى النبيّ ﷺ بعشائه ونتعشَّى معه.

– قال الرازي: قوله تعالى (... في سبيل الله) فبيّن تعالى في هؤلاء الفقراء أنهم بهذه الصفة، ومن هذا حاله يكون وضع الصدقة فيهم يفيد وجوهاً:

أحدها: إزالة عيلتهم .

والثاني: تقوية قلبهم لما انتصبوا إليه .

وثالثها: تقوية الإسلام بتقوية المجاهدين .

ورابعها: أنهم كانوا محتاجين جداً مع أنهم كانوا لا يظهرون حاجتهم، على ما قال تعالى (لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأرض يَحْسَبُهُمُ الجاهل أَغْنِيَاء مِنَ التعفف).

(لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ) يعني: سفرًا للتسبب في طلب المعاش.

– والضرب في الأرض: هو السفر؛ قال الله تعالى (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ).

وقال تعالى (عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه).

(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) أي: الجاهلُ بأمْرهم وحالهم يحسبهم أغنياء، من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم.

قال الرازي: الحسبان هو الظن، وقوله (الجاهل) لم يرد به الجهل الذي هو ضد العقل، وإنما أراد الجهل الذي هو ضد الاختبار، يقول: يحسبهم من لم يختبر أمرهم أغنياء من التعفف، وهو تفعل من العفة ومعنى العفة في اللغة ترك الشيء والكف عنه وأراد من التعفف عن السؤال فتركه للعلم، وإنما يحسبهم أغنياء لإظهارهم التجمل وتركهم المسألة.

وقال القرطبي: قوله تعالى (يَحْسَبُهُمُ الجاهل أَغْنِيَآءَ مِنَ التعفف) أي أنهم من الانقباض وترك المسألة والتوكل على الله بحيث يظنهم الجاهل بهم أغنياء.

وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفْطَنُ له فَيُتَصَدقَ عليه، ولا يسأل الناس شيئاً).

(تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) أي: بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم كما قال تعالى (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ)، وقال (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْل) وفي الحديث الذي في السنن (اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ).

(لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً) أي: لا يُلحْون في المسألة ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن السؤال، فقد ألحف في المسألة.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (ليس المسكينُ الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفَّفُ؛ اقرؤوا إن شئتم –يعني قوله– (لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا).

وقد يفهم من مفهوم (لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً) أنهم يسألون من غير إلحاف، لكن ليس هذا مراد لقوله في أول الآية (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) ولأن الشيء قد يرد نفيه مقيداً والمراد نفيه أصلاً وذلك أبلغ في النفي، أي: لا يسألون الناس أصلاً لا بإلحاف ولا بغير إلحاف، (فمفهوم المخالفة هنا غير مراد).

من فوائد الآية :

١ – أنه لا يجوز إعطاء من يستطيع على التكسب.

٢ – فضيلة التعفف.

٣ – ذم الإلحاح في المسألة.

٤ – الإشارة إلى الفراسة.

٥ – الثناء على من لا يسأل الناس.

وقال تَعَالَى (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) .

قال ابن كثير : أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً ، وخير الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا .

كما قال (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) .

وقال السعدي : (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا) النفقات الواجبة والمستحبة (لَمْ يُسْرِفُوا) بأن يزيدوا على الحد فيدخلوا في قسم التبذير وإهمال الحقوق الواجبة، (وَلَمْ يَقْتُرُوا) فيدخلوا في باب البخل والشح (وَكَانَ) إنفاقهم (بَيْنَ ذَلِكَ) بين الإسراف والتقتير (قَوَامًا) يبذلون في الواجبات من الزكوات والكفارات والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي من غير ضرر ولا ضرار وهذا من عدلهم واقتصادهم. (التفسير)

وقد قال تعالى **(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ)** أي: لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطي أحداً شيئاً.

قال ابن الجوزي: والمعنى: لا تمسك يدك عن البذل كلَّ الإمساك حتى كأنها مقبوضة إلى عنقك.

(وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) أي: ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك.

ثم بيّن سبحانه غائلة الطرفين المنهيّ عنهما فقال :

(فَتَقْعُدَ) فتصير إن بخلت.

(مَلُومًا) أي: يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك بسبب ما أنت عليه من الشح.

(مَّحْسُورًا) أي: ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو الدابة التي عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً.

وفي الحكمة: ما رأيت قطُّ سَرَفاً إلا ومعه حق مضيَّع.

من فوائد الآية :

١-تحريم الإسراف .

٢- ذم البخل، وقد تقدمت الأدلة الكثيرة في ذمه.

٣-فضل التوسط، ودين الإسلام دين التوسط .

٤-وجوب حفظ المال، وقد جاءت الشريعة بحفظ المال.

قال تعالى (ولا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً).

وقال ﷺ (إن الله كره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال) متفق عليه.

وقال تَعَالَى (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ) .

(وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ) أي: وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلَّا مِن أجْلِ عِبادتي وَحْدي؛ لِيَتذلَّلوا ويَخضَعوا لي بطاعتي .

قال السعدي : هذه الغاية، التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

قال الشنقيطي رحمه الله في معنى (إلا ليعبدون) التحقيق إن شاء الله في معنى هذه الآية الكريمة: أي إلا لآمرهم بعبادتي، وأبتليهم، أي أختبرهم بالتكاليف، ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

(**مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ**) قيل: المعنى: ما أُريدُ منكم مِن رزقٍ لي؛ فلَستُ بحاجةٍ إلى ذلك، فاللهُ تعالى غنيٌّ عن خَلْقِه، فهذه الجملةُ فيها بيانُ استغنائِه سُبحانَه عن عبادِه.

واختاره جمع من أهل العلم .

وهو في الجملةِ اختيارُ الزمخشريّ، والرازيّ، والبيضاوي، وابنِ تيميَّةَ، والبِقاعي، والشوكاني، والألوسي، وابنِ عاشور، وابن عثيمين.

وقيل : ما أُريدُ منهم أن يَرزُقوا خَلْقي.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسَّمْعانيُّ .

وقيل: المعنى: ما أُريدُ أن يَرزُقوا أنفُسَهم.

واختاره : يحيى بنُ سلام، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، وابن الجوزي.

وقيل: المعنى: ما أُريدُ منهم أن يَرزُقوا أنفُسَهم ولا غَيرَهم.

واختاره : الواحديُّ، والبغوي، والنسفي، وابنُ جُزَي، والخازن .

قال ابنُ جُزَي: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ أي: لا أريدُ أن يُطعِموني؛ لأنِّي مُنَزَّهٌ عن الأكلِ وعن صِفاتِ البَشَرِ، وأنا غنيٌّ عن العالَمينَ. وقيل: المعنى: ما أُريدُ أن يُطعِموا عَبيدي، فحُذِفَ المضافُ تجَوُّزًا... والأوَّلُ أظهَرُ).

(**وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ**) أي : ولا أريدُ منهم أن يُطعِموني؛ لأنِّي مُنَزَّهٌ عن الأكلِ، ولا أن يُطعِموا أنفُسَهم ولا غيرَهم، فلْيَشتَغِلوا بعبادت .

وقيل : وما أُريدُ أن يُطعِموا أحدًا مِن خَلْقِي .

من فوائد الآية :

١-أن الخالق هو الله .

٢-أن الحكمة من خلق الخلق عبادة الله .

٣-وجوب عبادة الله تعالى .

٤-وعبادته سبحانه هي : طاعته بفعل المأمور وترك المحظور، وذلك هو حقيقة دين الإسلام، لأن معنى الإسلام هو الاستسلام لله المتضمن غاية الانقياد في غاية الذل والخضوع .

٥- أن الجن خلقوا للغاية نفسها التي خلق الإنس من أجلها وهي عبادة الله، ففي يوم القيامة يقول الله مخاطباً كفرة الجن والإنس موبخاً ومبكتاً (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسلٌ منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) .

٦- إثبات وجود الجن .

٧-أن الله هو سبحانه الرازق ذو القوة المتين، الذي يُطْعِمُ ولا يُطْعَم، كما قال تعالى (قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكوننَّ من المشركين) .

٨-بيان الحكمة في أفعال الله حيث أن الله خلقنا للعبادة ولم يخلقنا هملاً .

قال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) .

وقال تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) قال الشافعي: "لا يؤمر ولا ينهى" .

٩-تنزيه الله عن العبث .

٥٢١ – عن أَبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قَالَ (لَيْسَ الغِنَى عَن كَثرَةِ العَرَض، وَلكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ) متفقٌ عَلَيْهِ.

«العَرَضُ» بفتح العين والراءِ: هُوَ المَالُ.

==========

(**الْعَرَض**) بِفَتْحِ الْعَيْن وَالرَّاء جَمِيعًا ، وَهُوَ مَتَاعُ الدُّنْيَا .

١-وَمَعْنَى الْحَدِيث : الْغِنَى الْمَحْمُود غِنَى النَّفْس وَشِبَعُهَا وَقِلَّة حِرْصهَا، لَا كَثْرَة الْمَال مَعَ الْحِرْص عَلَى الزِّيَادَة؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ طَالِبًا لِلزِّيَادَةِ لَمْ يَسْتَغْنِ بِمَا مَعَهُ فَلَيْسَ لَهُ غِنًى .

٢-الحديث دليل على أن الغنى الحقيقي هو غنى النفس لا غنى اليد.

فغنى النفس بأن يستغني العبد عن الناس، وعمّا في أيديهم، فيستغني العبد بما أعطاه الله، سواء أُعطي قليلاً أو كثيراً، وهذه الصفة يحبها الله عز وجل؛ قال النبي ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِي).

وقد جاء عند أحمد وسعيد بن منصور وغيرهما (إنما الغنى في النفس) وأصله في مسلم ولابن حبان من حديث أبي ذر قال: لي رسول الله ﷺ (يا أبا ذر أترى كثرة المال هو الغنى؟ قلت: نعم، قال: وترى قلة المال هو الفقر؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: إنما الغنى غنى القلب والفقر فقر القلب).

قال بن بطال معنى الحديث: ليس حقيقة الغنى كثرة المال، لأن كثيراً ممن وسع الله عليه في المال لا يقنع بما أوتي فهو يجتهد في الازدياد ولا يبالي من أين يأتيه فكأنه فقير لشدة حرصه، وإنما حقيقة الغنى غنى النفس، وهو من استغنى بما أوتي وقنع به ورضي ولم يحرص على الازدياد ولا ألح في الطلب فكأنه غني.

وقال القرطبي: ومعنى هذا الحديث: أن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح، هو غنى النفس، وبيانه: أنه إذا استغنت نفسه كفّت عن المطامع، فعزّت وعظمت، فجعل لها من الحظوة والنزاهة والتشريف والمدح أكثر ممن كان غنيًا بماله، فقيرًا بحرصه وشرهه، فإن ذلك يورطه في رذائل الأمور، وخسائس الأفعال، لبخله ودناءة همّته، فيكثر ذامُّه من الناس، ويصغر قدره فيهم؛ فيكون أحقر من كل حقير، وأذل من كل صغير.

وقال النووي: وَمَعْنَى الْحَدِيث: الْغِنَى الْمَحْمُود غِنَى النَّفْس وَشِبَعُهَا وَقِلَّة حِرْصهَا، لَا كَثْرَة الْمَال مَعَ الْحِرْص عَلَى الزِّيَادَة؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ طَالِبًا لِلزِّيَادَةِ لَمْ يَسْتَغْنِ بِمَا مَعَهُ فَلَيْسَ لَهُ غِنًى.

وقال ابن الجوزي رحمه الله: "الْعرض: جَمِيع الْأَمْوَال. وَالْمرَاد بِهِ أَنه من افْتَقَرت نَفسه لم يغنه شَيْء، وافتقارها يكون بالشره فَلَا يغنيها مَا يكفيها .

٣-أن المتصف بغنى النفس يكون قانعاً بما رزقه الله، لا يحرص على الازدياد لغير حاجة، ولا يلح في الطلب، ولا يحلف في السؤال، بل يرضى بما قسم الله له، فكأنه واجد أبداً، والمتصف بفقر النفس على الضد منه لكونه لا يقنع بما أُعطي، بل هو أبداً في طلب الازدياد من أي وجه أمكنه، ثم إذا فاته المطلوب حزن وأسف فكأنه فقير من المال؛ لأنه لم يستغن بما أُعطي، فكأنه ليس بغني .

٤ – فضل غنى النفس :

هو الغنى الحقيقي .

كما في حديث الباب .

وحديث (إنما الغنى غنى القلب) .

والله تعالى يحبه :

عن سعد قال : قال ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَ الْخَفِيّ) رواه مسلم .

وكان الرسول ﷺ يدعو به .

عن ابن مسعودٍ أنَّ النَّبيّ ﷺ كَانَ يقول (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ الهُدَى، وَالتُّقَى، وَالعَفَافَ، وَالغِنَى) رواه مسلم.

سبب لعزة المسلم .

قال ﷺ (واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس) .

سبب لدخول الجنة .

عن عَوْف بْن مَالِكٍ الأَشْجَعِي . قَالَ (كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً فَقَالَ « أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ » وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ فَقُلْنَا قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ « أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ». فَقُلْنَا قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ « أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ». قَالَ فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَعَلاَمَ نُبَايِعُكَ قَالَ « عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَتُطِيعُوا – وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً – وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا ». فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ) رواه مسلم .

٥-كيف تحقيق غنى النفس ؟

أولاً : دعاء الله بذلك .

كما كان ﷺ يقول (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ الهُدَى، وَالتُّقَى، وَالعَفَافَ، وَالغِنَى) .

ثانياً : أن يستغني بالله .

قال ﷺ (ومن يستغني يغنه الله) .

ثالثاً :الرضا بما قسم الله .

قال ﷺ (... وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس) رواه الترمذي .

٦-الاستغناء عن الناس سبب للعزة .

فمن أعظم أسباب العزة في الدنيا الاستغناء عن الناس ... فلا يزال الإنسان عزيزاً محفوظ القدر إذا كان مستغنياً عن الناس، لا يحتاج إليهم، ومتى ما سأل الناس لنفسه وأكثر من مسألتهم وطلب إعانتهم – هان عليهم، وقلَّ قدرُه عندهم؛ وشعر هو بجميل معروفهم عليه؛ فكان أسيراً لهذا الإحسان؛ فالمعروف عبودية.

وفي قوله ﷺ **(عز المؤمن استغناؤه عن الناس)** حثٌ على العزّة والكرامة ... وأنه كلما ازداد العبد استغناء ازداد عزة ... وبقدر حاجته للناس وطلبه منهم تنقص مكانته، ويفقد في الناس تقديره.

قال ابن رجب: وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ بالأمر بالاستعفاف عن مسألة الناس والاستغناء عنهم، فمن سأل الناس ما بأيديهم كرهوه وأبغضوه، لأن المال محبوب لنفوس بني آدم، فمن طلب منهم ما يحبونه، كرهوه لذلك.

وكان عمر يقول في خطبته: إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، وإن الإنسان إذا أيس من الشيء استغنى عنه.

وقال ابن القيم: يستعين الإنسان على التجرد من الطمع والفزع؟ بالتوحيد والتوكل والثقة بالله، وعلمك بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، وأن الأمر كله لله، ليس لأحد مع الله شيء .

وقال الحسن: لا تزالُ كريماً على الناس ما لم تَعاطَ ما في أيديهم، فإذا فعلتَ ذلك استخفُّوا بكَ، وكرهوا حديثك، وأبغضوك.

وقال أعرابيٌّ لأهل البصرة: من سيِّدُ أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن. قال: بما سادهم؟ قالوا: احتاجَ الناسُ إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم.

ولهذا جاء في الحديث : عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبي ﷺ فقال: يَا رسولَ الله، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ، فقال: ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبّك اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبّك النَّاسُ) .

فهذا الحديث دليل على فضل الاستغناء عما في أيدي الناس، لأن النبي ﷺ جعله سبباً لمحبة الناس لك.

وقال ابن تيمية رحمه الله : فغني النفس الذي لا يستشرف إلى المخلوق فإن :

الحر عبد ما طمع والعبد حر ما قنع

وقد قيل: أطعتُ مطامعي فاستعبدتني ... فكُره أن يتبع نفسه ما استشرفت له لئلا يبقى في القلب فقر، وطمع إلى المخلوق، فإنه خلاف التوكل المأمور به، وخلاف غنى النفس .

٧-واستغناء العبد دليل على حسن توكله على خالقه، وجميل تعبده لمولاه.

٨-فكلما قوي تعلق العبد بالله ضعف تعلقه بالمخلوقين وبالعكس. (السعدي)

٩-أنه كلما كملت عبودية المسلم كلما استغنى عن الناس .

١٠ - ذم الطمع.

ولهذا كان من دعائه ﷺ (اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع) رواه مسلم .

قال النووي رحمه الله عن قوله (ومن نفس لا تشبع) استعاذة من الحرص والطمع والشَّرَه، وتعلق النفس بالآمال البعيدة .

١١ - فضل تزكية النفس وقمعها عن شهواتها.

٥٢٢ - وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ) رواه مسلم .

==========

(**قد أفلح**) أي : فاز بمطلوبه .

والفلاح في لغة العرب يطلق إطلاقين مشهورين:

الإطلاق الأول: أن العرب تقول (أفلح فلان) إذا فاز بمطلوبه الأكبر، فكل إنسان كان يحاول مطلوباً أعظم ثم ظفر به وفاز بما كان يرجو فهذا قد أفلح.

الإطلاق الثاني: أن المراد بالفلاح: الدوام والبقاء السرمدي في النعيم، فكل من كان له دوام وبقاء في النعيم تقول العرب (نال الفلاح).

١-الحديث دليل على أن من أسلم فقد أفلح في دنياه وآخرته .

عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ يُكَفِّرُ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقِصَاصُ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلاَّ أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهَا) . رواه مسلم

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلاَمَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا) . متفق عليه

قال النووي : وذهب ابن بطال وغيره من المحققين إلى أن الحديث على ظاهره ، وأنه إذا أسلم الكافر، ومات على الإسلام يثاب على ما فعله من الخير في حال كفره، واستدلوا بحديث أبي سعيد الخدري قال: قال ﷺ: إذا أسلم الكافر، فحسن إسلامه، كتب الله تعالى له كل حسنة زَلَفها، ومحا عنه كل سيئة زلفها، وكان عمله بعد ذلك ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله عنها .

٢-وجه كون الإسلام سببًا في الفلاح:

أ-أنه سبب لنجاة العبد من النار ودخوله الجنة .

قال تعالى (فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَاز) ولن يقبل الله من أحدٍ دينًا غير الإسلام.

ب-أن الإسلام أكمل الشرائع وأفضلها، وأعلاها وأجلها، فهو الدين الذي ارتضاه الله عز وجل لجميع البشر منذ أن خلق آدم إلى أن تقوم الساعة، وهو دين الأنبياء والمرسلين جميعًا.

ج-أنه دين الفطرة، كما أنه حرر الإنسان من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد.

د-أن من مقاصده الأساسية حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، ولا يمكن لإنسان أن يهنأ بعيش أو راحة في ظل انتقاص أو غياب واحد من هذه المقاصد، فماذا سيكون حال الإنسان لو غاب أو انتقص جُلُّ هذه المقاصد.

هـ-أن ما شرعه من أحكام وعبادات وأخلاق، هدفها تنظيم حياة الإنسان، وبث الراحة والطمأنينة والسعادة في نفسه، ولتجعل منه مخلوقًا مكرمًا يعيش لهدف، ليس كل همَّه أن يأكل ويشرب ويتمتع كما تفعل الأنعام.

٣-قوله (من أسلم) بدأ به؛ لأنه الأساس في الاعتداد بقبول صالح الأعمال، والمراد: الإسلام الصحيح المخلص فيه؛ لأنه الكامل، فينصرف المطلق إليه. (دليل الفالحين)

٤-الحديث دليل أن من أسباب الفلاح : الكفاف في الرزق ، وقد تقدم شرحه في حديث (اللهم رزق آل محمد كفافاً) .

قال ابن الأثير -رحمه الله-: الكفاف: هو الذي لا يفضل عن الشيء، ويكون بقدر الحاجة إليه.

وقال ابن علان -رحمه الله- (كفافًا) أي: بقدر الحاجة، لا يفضل عنه .

وقال المناوي -رحمه الله- (ورُزِقَ كفافًا) أي: ما يكف عن الحاجات، ويدفع الضرورات والفاقات، ولا يلحقه بأهل الترفُّهَات .

وقال رحمه الله : ... وقد اتفق الجميع على أن ما أحوج من الفقر مكروه، وما أبطر من الغنى مذموم، والكفاف حالة متوسطة بين الفقر والغنى، وخير الأمور أواسطها، ولذلك سأله المصطفى ﷺ بقوله: (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا) ومعلوم أنه لا يسأل إلا أفضل الأحوال .

٥-الحديث دليل على فضل القناعة وأنها من أسباب الفلاح .

ووجه كون القناعة سببًا للفلاح: أنها تمنع صاحبها من الوقوع في الظلم، والتطاول على الأموال المحرمة، وبسبب ذلك يَهْلكُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ كما مشاهد في الواقع المعيش.

وهناك وجه آخر: وهو أن الحازم إذا ضاقت عليه الدنيا لم يجمع على نفسه بين ضيقها وفقرها، وبين فقر القلب وحسرته وحزنه، بل كما يسعى لتحصيل الرزق فليسع لراحة القلب، وسكونه وطمأنينته، والقناعة أحد الأسباب لتحقيق ذلك، فبسببها يكون المسلم راضيًا برزقه، منشرح الصدر والبال، لذلك كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَ قَنِّعْنِي بِمَا رَزَقْتَنِي، وَبَارِكْ لِي فِيهِ، وَاخْلُفْ عَلَيَّ كُلَّ غَائِبَةٍ لِي بِخَيْرٍ» .

٦-فضائل القناعة :

أولاً : القناعة هي السعادة والحياة لمن أراد الحياة .

قال تعالى (منْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) .

قال العلماء : الحياة الطيبة : الرضا والقناعة .

ولهذا قال ابن الجوزي – رحمه الله تعالى-: من قنع طاب عيشه، ومن طمع طال طيشه .

ثانياً : القناعة أفضل الحسنات والخيرات .

قال رب الأرض والسماوات (وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) .

حسنة الدنيا : القناعة في الرزق .

ثالثاً : القناعة سبب للنعيم .

قال تعالى (إن الأبرار لفي نعيم) .

قال الرازي : قال بعضهم : النعيم القناعة ، والجحيم الطمع .

وقال النيسابوري : وقال آخرون : النعيم : القناعة والتوكل .

رابعاً : القناعة من أسباب الفلاح .

لحديث الباب (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ) .

هي القناعة فالزمها تعش ملكًا ---- لو لم يكن لك إلا راحـــة البدن

فأين من ملك الدنيا بأجمعها ---- هل راح منها بغير القطن والكفن

خامساً : وأخبر النبي ﷺ أن من قنع فله طوبى .

عن فضَالَة بن عبيدٍ الأنصاريّ ﷺ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلإِسْلاَمِ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافاً وَقَنِع). رواه الترمذي

سادساً : القناعة سبب للغنى .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ يَأْخُذُ عَنِّي هَؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ). فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقُلْتُ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّ خَمْسًا وَقَالَ (اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَلاَ تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ) .

قالت الحكماء : اقنع تشبع .

وخير من قول الحكماء ، قول سيد الحكماء عليه الصلاة والسلام في الأرض والسماء :

عن عُبيْدِ الله بنِ محْصن الأَنصَارِيّ الخطميّ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ (مَنْ أصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً في سربِهِ، مُعَافىً في جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا) رواه الترمذي .

سابعاً : القناعة فيها العز ، والذل في الطمع .

ذلك أن القانع لا يحتاج إلى الناس فلا يزال عزيزاً بينهم، والطمّاع يُذل نفسه من أجل المزيد .

جاء في حديث سهل بن سعد مرفوعاً (شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس) .

وكان محمد بن واسع رحمه الله تعالى يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد .

وقال الحسن رحمه الله : لا تزال كريماً على الناس، ولا يزال الناس يكرمونك ما لم تغاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك وكرهوا حديثك وأبغضوك .

كما أن الإمامة في الدين والسيادة في الدنيا والرفعة في الذكر لا يحصّلها المرء إلا إذا استغنى عن الناس وما في أيديهم، واحتاج الناس إليه في العلم والوعظ والإحسان .

قال أعرابي لأهل البصرة: من سيد أهل هذه القرية ؟ قالوا: الحسن، قال: بم سادهم ؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم .

قال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس هماً الحسود واهنأهم عيشاً القنوع .

قيل : للذل من أبوك ؟ قال : الطمع ، وقيل : للعز والكرامة من أبوك ؟ قال : الرضا والقناعة .

من طمع ذل ، ومن قنع عز .

قال سعد لابنه : يا بني إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فإنها مال لا ينفد، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس مما في أيدي الناس .

قيل للحسن للبصري : ما الذي زهدك في الدنيا ، ما سر زهدك ، فقال : علمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأن قلبي ، وعلمت أن عملي لا يقوم به غيري فاشتغلت به ، وعلمت أن الموت ينتظرني فانا في استعداد له .

وقال ابن حبان : مِن أكثر مواهب الله لعباده وأعظمها خطرًا القناعة، وليس شيء أروح للبدن من الرضا بالقضاء، والثقة بالقسم، ولو لم يكن في القناعة خصلة تُحمد إلا الراحة، وعدم الدخول في مواضع السوء لطلب الفضل، لكان الواجب على العاقل ألا يفارق القناعة على حالة من الأحوال .

قال حكيم : إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه الطاعة ، وألزمه القناعة ، وأكساه العفاف .

وقال إبراهيم بن شيبان : الشَّرف في التَّواضُع ، والعزُّ في التَّقوى ، والحرّية في القناعة .

قال ابن الجوزي : لا عيش في الدنيا إلا للقنوع باليسير، فإنه كلما زاد الحرص على فضول العيش زاد الهمّ، وتشتت القلب، واستعبد العبد، وأما القنوع فلا يحتاج إلى مخالطة من فوقه، ولا يبالي بمن هو مثله، إذ عنده ما عنده .

كما قيل : من رضي بالخلِّ والبقْل لم يستعبده أحد .

أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعتُ لكنت حراً .

وقال ﷺ (وأعوذ بك من نفس لا تشبع) رواه مسلم .

لأن النفس إذا ما رُبيت على القناعة والاقتصاد والاقتصار فإنها لا تشبع، ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله: ما طمحت نفس لشيء من هذه الدنيا فبلغته إلا طمحت إلى ما هو أعلى منه .

قال سعد لابنه : إياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك بالقناعة فإنها مال لا ينفد .

قال علي (وما الخمر الصرف بأذهب لعقول الرجال من الطمع) .

قيل :

حسبي بعلمي إن نفع ما الذل إلا في الطمع

مـن راقـب الله نـزع عن سوء ما كان صنع

وقال عبد العزيز الجرجاني رحمه الله، يبعث برسالة للعلماء، قال :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عَظَّموه في النفوس لعُظِّما

ولكن أهـانـوه فهـان ودنسـوا محيـاه بـالأطمـاع حتى تجهما

وكان عمر يقول في خطبته على المنبر : إنَّ الطمع فقر، وإنَّ اليأس غنى، وإنَّ الإنسانَ إذا أَيِسَ من الشيء استغنى عنه .

والطمع يذهب العلم .

روي أنَّ عبد الله بن سلام لقيَ كعب الأحبار عند عمر، فقال: يا كعب، مَنْ أربابُ العلم؟ قال: الذين يعملون به، قال: فما يذهب بالعلم من قلوب العلماء بعد إذ حفظوه وعقلوه؟ قال: يُذهبه الطمعُ، وشرَهُ النفس، وتطلبُ الحاجات إلى النَّاس، قال: صدقت .

والطمع يمحق البركة .

فعن حكيم بن حزام ﷺ قال (سألت رسول الله فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع) .

قال أبو بكر الوراق: لو قيل للطمع من أبوك؟ لقال: الشك في المقدور، ولو قيل له: ما حرفتك؟ لقال: اكتساب الذل، ولو قيل ما غايتك؟ لقال: الحرمان.

قال ابن عطاء الله: أنت حر مما أنت عليه آيس، وعبد لما أنت له طامع .

قيل : العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع .

وقيل: إن العقاب يطير في مصاف عزه بحيث لا يرتقي طرف إلى مطاره، ولا تسمو الهمة إلى الوصول إليه، فيرى قطعة لحم معلقة على شبكة فينزله الطمع من مطاره فيعلق بالشبكة جناحه فيصيده صبي يلعب به، فحين كان في عليائه كان عزيزاً حراً، فلما طمع في قطعة لحم ورغب فيها نزل إليها فقد حريته.

قال الحسن البصري: فساد الدين الطمع وصلاح الدين الورع .

قال الغزالي : وقد جبل الآدمي على الحرص والطمع وقلة القناعة قال رسول الله ﷺ (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً) وعلاج ذلك لا يكون إلا بأمور :

الأول : الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق، وهو الأصل في القناعة، فإن من كثر خرجه واتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة، وفي الحديث (ما عال من اقتصد) وعنه ﷺ (ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب) وعنه ﷺ (الاقتصاد وحسن السمت والهدي الصالح جزء من بضعة وعشرين جزءاً من النبوة) .

الثاني : أن يتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه .

الثالث : أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء ، وما في الحرص والطمع من الذل والمداهنة .

الرابع : أن يكثر تأمله في تنعم الكفرة والحمقى، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء، ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة الفجار أو الأبرار فيهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير .

الخامس : أن يفهم ما في جمع المال من الخطر كما ذكرنا في آفات المال، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه، فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة وعماد الأمر الصبر .

وقال بعضهم: الحرص يُنقص قدر الإنسان، ولا يزيد في رزقه.

وقالوا: العبيد ثلاثةٌ: عبد رِقّ، وعبد شهوة، وعبد طمع.

٦-أن من اتصف بهذه الأمور، فقد حصل على مطلوبه، وظفر بمرغوبه في الدنيا والآخرة .

٥٢٣ – وعن حكيم بن حزام ﷺ قَالَ (سألتُ رسول الله ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: يَا حَكِيم، إنَّ هَذَا المَالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، فَمَنْ أخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أخَذَهُ بإشرافِ نفسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، وَاليَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى» قَالَ حكيم: فقلتُ: يَا رسول الله، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ أَرْزَأُ أحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَدْعُو حَكيمًا لِيُعْطِيَه العَطَاء، فَيَأبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، ثُمَّ إنَّ عُمَرَ ﷺ دَعَاهُ لِيُعْطِيَه فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ. فقالَ: يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، أُشْهِدُكُمْ عَلَى حَكيمٍ أنّي أعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ الَّذِي قَسَمَهُ اللهُ لَهُ في هَذَا الفَيء فَيَأبَى أَنْ يَأخُذَهُ. فَلَمْ يَرْزَأْ حَكيمٌ أحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ النبي ﷺ حَتَّى تُوُفِّي. متفقٌ عَلَيْهِ.

«**يَرْزَأُ**» **بِراءٍ ثُمَّ زايٍ ثُمَّ همزة؛ أيْ: لَمْ يَأخُذْ مِنْ أحَدٍ شَيْئًا، وَأصْلُ الرُّزءِ: النُّقْصَان، أيْ: لَمْ يَنقُص أحَدًا شَيْئًا بالأخذِ مِنْهُ، وَ «إشْرَافُ النَّفْسِ»: تَطَلُّعُهَا وَطَمَعُهَا بالشَّيْء. وَ «سَخَاوَةُ النَّفْسِ»: هِيَ عَدَمُ الإشرَاف إلَى الشَيء، وَالطَّمع فِيهِ، وَالمُبَالاَةِ بِهِ وَالشَّرَه.**

==========

(**سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ**) أي: المال.

(**إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ**) بفتح الخاء وكسر الضاد، قال النووي: شَبَّهَهُ فِي الرَّغْبَة فِيهِ وَالْمَيْل إِلَيْهِ وَحِرْص النُّفُوس عَلَيْهِ بِالْفَاكِهَةِ الْخَضْرَاء الْحُلْوَة الْمُسْتَلَذَّة، فَإِنَّ الْأَخْضَر مَرْغُوب فِيهِ عَلَى اِنْفِرَاده، وَالْحُلْو كَذَلِكَ عَلَى اِنْفِرَاده فَاجْتِمَاعُهُمَا أَشَدّ.

وَفِيهِ إِشَارَة إِلَى عَدَم بَقَائِهِ؛ لِأَنَّ الْخَضْرَاوَات لَا تَبْقَى وَلَا تُرَاد لِلْبَقَاءِ. وَاَللَّه أَعْلَم.

(**فَمَنْ أَخَذَهُ**) أي: من أخذ المال الذي يُبذل له.

(**فَمَنْ أخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفس**) أي: من غير شره ولا إلحاح، وفي رواية (بِطِيبِ نَفْسٍ) .

قال النووي: وَأَمَّا طِيب النَّفْس فَذَكَرَ الْقَاضِي فِيهِ اِحْتِمَالَيْنِ أَظْهَرهُمَا: أَنَّهُ عَائِد عَلَى الْآخِذ، وَمَعْنَاهُ: مَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ سُؤَال وَلَا إِشْرَاف وَتَطَلُّع بُورِكَ لَهُ فِيهِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ عَائِد إِلَى الدَّافِع، وَمَعْنَاهُ: مَنْ أَخَذَهُ مِمَّنْ يَدْفَع مُنْشَرِحًا بِدَفْعِهِ إِلَيْهِ طَيِّبَ النَّفْسِ لَا بِسُؤَالٍ اِضْطَرَّهُ إِلَيْهِ أَوْ نَحْوه مِمَّا لَا تَطِيب مَعَهُ نَفْس الدَّافِع.

(**بُورِكَ لَهُ فِيهِ**) أي: جعل الله تعالى البركة له في ذلك المال.

(**وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ**) يريد به شدة حرص السائل، وإشرافه على المسألة.

قال النووي: قَالَ الْعُلَمَاء: إِشْرَاف النَّفْس تَطَلُّعُهَا إِلَيْهِ وَتَعَرُّضُهَا لَهُ وَطَمَعُهَا فِيهِ.

(**وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ، وَلاَ يَشْبَعُ**) قِيلَ: هُوَ الَّذِي بِهِ دَاء لَا يَشْبَع بِسَبَبِهِ، وَقِيلَ: يَحْتَمِل أَنَّ الْمُرَاد التَّشْبِيه بِالْبَهِيمَةِ الرَّاعِيَة.

(**وَالْيَدُ الْعُلْيَا**) وهي المنفقة.

(**خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى**) وهي الآخذة.

١ – الحديث دليل على أن المال المحرّم لا بركة فيه.

أ–قال تعالى (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَات).

ب– حديث قبيصة. قال: قال ﷺ (فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتٌ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا).

ج– حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي قال (قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَخَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ: لا وَاللَّهِ مَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ! إِلاَّ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا ... الحديث وفيه: فَمَنْ يَأْخُذْ مَالاً بِحَقِّهِ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ يَأْخُذْ مَالاً بِغَيْرِ حَقِّهِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الَّذِي يَأْكُلُ وَلا يَشْبَع).

وفي لفظ (إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ).

د– حديث الباب (يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلا يَشْبَع) متفق عليه.

هـ–عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَال (الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا) متفق عليه.

٢ – **قال ابن حجر** رحمه الله: وفيه أن المكتسب للمال من غير حله لا يُبارك له فيه لتشبيهه بالذي يأكل ولا يشبع، وفيه ذم الإسراف، وكثرة الأكل والنهم فيه، وأن اكتساب المال من غير حله، وكذا إمساكه عن إخراج الحق منه سبب لمحقه فيصير غير مبارك، كما قال تعالى (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَات).

٣ – **قال ابن تيمية:** فِي الْأَخْذِ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ، فِي الصَّحِيحِ حَدِيثُ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ: لَمَّا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ثُمَّ قَالَ (يَا حَكِيمُ: إنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى. قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْت: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ لَا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَك شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا. فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَدْعُو حَكِيمًا لِيُعْطِيَهُ الْعَطَاءَ فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا ثُمَّ إنَّ عُمَرَ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ. فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ وَفِي رِوَايَةٍ إنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنِّي أَعْرِضُ عَلَى حَكِيمٍ حَقَّهُ الَّذِي قَسَمَ اللَّهُ لَهُ فِي هَذَا الْفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنْ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ).

فَفِيهِ أَنَّ حَكِيمًا ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا وَأَقَرَّهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ وَكَذَلِكَ الْخُلَفَاءُ بَعْدَهُ. وَهَذَا حُجَّةٌ فِي جَوَازِ الرَّدِّ وَإِنْ كَانَ عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا إشْرَافٍ. وَقَوْلُهُ (الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى) تَنْبِيهٌ لَهُ عَلَى أَنَّ يَدَ الْآخِذِ سُفْلَى.

٤–وسئل ابن تيمية: عَنْ رَجُلٍ أَعْطَاهُ أَخٌ لَهُ شَيْئًا مِنْ الدُّنْيَا أَيَقْبَلُهُ؟ أَمْ يَرُدُّهُ؟

فَأَجَابَ:

قَدْ ثَبَتَ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِعُمَرَ (مَا أَتَاك مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ سَائِلٍ وَلَا مُشْرِفٍ فَخُذْهُ وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَك) وَثَبَتَ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ (أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ سَأَلَهُ فَأَعْطَاهُ ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْطَاهُ ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْطَاهُ ثُمَّ قَالَ: يَا حَكِيمُ مَا أَكْثَرَ مَسْأَلَتِك إنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ فَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ فَقَالَ لَهُ حَكِيمٌ: وَالَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ لَا أَرْزَأُ بَعْدَك مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا). فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ يُعْطَيَانِهِ فَلَا يَأْخُذُ. فَتَبَيَّنَ بِهَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ أَنَّ الْإِنْسَانَ إذَا كَانَ سَائِلًا بِلِسَانِهِ، أَوْ مُشْرِفًا إلَى مَا يُعْطَاهُ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَقْبَلَهُ إلَّا حَيْثُ تُبَاحُ لَهُ الْمَسْأَلَةُ وَالِاسْتِشْرَافُ.

وَأَمَّا إِذَا أَتَاهُ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ؛ وَلَا إِشْرَافٍ فَلَهُ أَخْذُهُ إِنْ كَانَ الَّذِي أَعْطَاهُ أَعْطَاهُ حَقَّهُ كَمَا أَعْطَى النَّبِيُّ ﷺ عُمَرَ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ عَمِلَ فَأَعْطَاهُ عِمَالَتَهُ وَلَهُ أَنْ لَا يَقْبَلَهُ كَمَا فَعَلَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ عَلَيْهِ فَإِنْ قَبِلَهُ وَكَانَ مِنْ غَيْرِ إِشْرَافٍ لَهُ عَلَيْهِ فَقَدْ أَحْسَنَ.

٥ – الحديث دليل على فضل الاستعفاف.

٦ – من علامات البركة بالمال أخذه بطيب نفس.

٧ – الحديث دليل على فضل الإنفاق لقوله (اليد العليا خير من اليد السفلى).

والمراد باليد العليا: هي المنفقة. والسفلى: هي السائلة.

كما جاء في حديث آخر: (يد الله فوق يد المعطي، ويد المعطي فوق يد المعطى، ويد المعطى أسفل الأيدي).

وقال ﷺ (الأيد ثلاثة: فيد الله العليا، ويد المعطي التي تليها، ويد السائل السفلى).

٥٢٤ – عن أَبي موسى الأشعري ﷺ قَالَ (خَرَجْنَا مَعَ رسول الله ﷺ فِي غَزاةٍ وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ، فَنقِبَت أقدَامُنَا وَنَقِبَت قَدَمِي، وسَقَطت أظْفَاري، فَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أرْجُلِنا الخِرَقَ، فَسُمِّيَت غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ لِمَا كُنَّا نَعْصِبُ عَلَى أرْجُلِنَا مِنَ الخِرَقِ، قَالَ أَبُو بُردَة: فَحَدَّثَ أَبُو مُوسَى بِهَذَا الحَدِيثِ، ثُمَّ كَرِه ذَلِكَ، وقال: مَا كُنْتُ أصْنَعُ بِأنْ أذْكُرَهُ! قَالَ: كأنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَكُونَ شَيْئًا مِنْ عَمَلِهِ أفْشَاهُ) متفقٌ عَلَيْهِ.

=========

(غزوة ذات الرِّقَاعِ) هِيَ غَزْوَة مَعْرُوفَة كَانَتْ سَنَة خَمْس مِنْ الْهِجْرَة بِأَرْضِ غَطَفَانَ مِنْ نَجْد، سُمِّيَتْ ذَات الرِّقَاع لِأَنَّ أَقْدَام الْمُسْلِمِينَ نُقِّبَتْ مِنْ الْحُفَاء فَلَفُّوا عَلَيْهَا الْخِرَق، هَذَا هُوَ الصَّحِيح فِي سَبَب تَسْمِيَتهَا، وَقَدْ ثَبَتَ هَذَا فِي الصَّحِيح عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيّ ﷺ.

وَقِيلَ: سُمِّيَتْ لِجَبَلٍ هُنَاكَ يُقَال لَهُ الرِّقَاع، لِأَنَّ فِيهِ بَيَاضًا وَحُمْرَة وَسَوَادًا.

وَقِيلَ: سُمِّيَتْ بِشَجَرَةٍ هُنَاكَ يُقَال لَهَا ذَات الرِّقَاع.

وَقِيلَ: لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ رَقَعُوا رَايَاتهمْ وَيَحْتَمِل أَنَّ هَذِهِ الْأُمُور كُلّهَا وُجِدَتْ مَعَهَا. (نووي)

وقال ابن حجر : هذه الغزوة اختُلِف فيها، متى كانت؟ واختُلف في سبب تسميتها بذلك، وقد جَنَح البخاري إلى أنها كانت بعد خيبر .

(عن أَبي موسى الأشعري) الصحابي الجليل مات سنة : ٥٠ هـ .

(قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ رسول الله ﷺ فِي غَزاةٍ وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ) قال الحافظ -رحمه الله-: لم أقف على أسمائهم، وأظنّهم من الأشعريين.

(بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ) أي: نركبه عُقْبَةً عُقْبةً، وهو أن يركب هذا قليلًا، ثم ينزل، فيركب الآخر بالنوبة، حتى يأتي على سائرهم.

(فَنقِبَت أقدَامُنَا) بفتح النون، وكسر القاف، بعدها موحّدة -؛ أي: قَرِحَت من الْحُفَاء، ورَقّت جلودها، وتخرّقت من شدّة المشي **(وَنَقِبَت قَدَمِي، وسَقَطت أظْفَاري، فَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أرْجُلِنا الخِرَقَ)** - بكسر، ففتح -: جمع خِرْقة - بكسر، فسكون - وهي القطعة من الثوب .

(لِمَا كُنَّا نَعْصِبُ) أي : نشُد عَلَى أَرْجُلِنَا مِنَ الخِرَقِ .

١-فيه بيان ما كان عليه الصحابة من التقشف وخشونة العيش وصبرهم على ذلك مع الرضا.

٢-فضل الصحابة وصبرهم في نشر دين الله تعالى .

٣-فضل القناعة والرضا بما قسم الله .

٤-فضل الصحابة في الزهد في الدنيا والتقلل منها .

٥-استحباب إخفاء الأعمال الصالحة، وما يكابده العبد من المشاقّ في طاعة الله تعالى ولا يُظهر شيئًا من ذلك إلا لمصلحة راجحة ٦-جواز التَعَاقب على البعير الواحد.

٧-جواز ذكر العمل الصالح والتحدث بنعمة الله إذا لم يكن فيه رياء ولا سمعة وكان في ذكره تذكير ونفع للناس.

٨-كراهة أن يذكر الإنسان ما فعله من عمل صالح خشية الوقوع في الرياء.

٥٢٥ – وعن عمرو بن تَغْلِبَ رضي الله عنه (أنَّ رسول الله ﷺ أُتِي بِمالٍ أَوْ سَبْيٍ فَقَسَّمَهُ، فَأعْطَى رِجَالًا، وَتَرَكَ رِجَالًا، فَبَلغَهُ أنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ اللهَ، ثُمَّ أثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أمَّا بَعْدُ، فَواللهِ إنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَأدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أدَعُ أحَبُّ إلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنِّي إنَّمَا أُعْطِي أقْوَامًا لِمَا أرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ وَالهَلَعِ، وَأَكِلُ أقْوَامًا إلَى مَا جَعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِهِم مِنَ الغِنَى وَالخَيْرِ، مِنْهُمْ عَمْرُو بنُ تَغْلِبَ» قَالَ عَمْرُو بنُ تَغْلِبَ: فَوَاللهِ مَا أُحِبُّ أنَّ لِي بِكَلِمَةِ رسول الله ﷺ حُمْرَ النَّعَم) رواه البخاري .

==========

(**فَأعْطَى رِجَالًا، وَتَرَكَ رِجَالًا**) منه .

(**أمَّا بَعْدُ، فَواللهِ إنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَأدَعُ الرَّجُلَ**) أي : اترك .

(**وَالَّذِي أدَعُ**) أي : أترك إعطاءه .

(**وَالهَلَعِ**) أشد الجزع ، وقيل : الضجر .

(**وَأَكِلُ**) أي : أفوض .

١-حكمة رسول الله ﷺ في تأليف القلوب وإنقاذها من الهلاك.

٢-حرص النبي ﷺ على هداية الناس بكل وسيلة .

٣-استئلاف من يُخْشَى جَزَعُه، أو يُرْجَى بسبب إعطائه طاعة من يتبعه .

٤-أن الرزق في الدنيا ليس على قدر درجة المرزوق في الآخرة .

٥-تفاوت الإيمان في القلوب .

٦-أَنَّ الْبَشَرَ جُبِلُوا عَلَى حُبِّ الْعَطَاءِ وَبُغْضِ الْمَنْعِ وَالْإِسْرَاعِ إِلَى إِنْكَارِ ذَلِكَ قَبْلَ الْفِكْرَةِ فِي عَاقِبَتِهِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ .

٧- أَنَّ الْمَنْعَ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا لِلْمَمْنُوعِ كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خير لكم) ... وَمِنْ ثَمَّ قَالَ الصَّحَابِيُّ : مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ حُمْرَ النَّعَمِ ، وَالْبَاءُ فِي قَوْلِهِ بِتِلْكَ لِلْبَدَلِيَّةِ أَيْ : مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بَدَلَ كَلِمَتِهِ النَّعَمَ الْحُمْرَ لِأَنَّ الصِّفَةَ الْمَذْكُورَةَ تَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ إِيمَانِهِ الْمُفْضِي بِهِ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ وَثَوَابُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

٨-حسن خلق النبي ﷺ وطيب عشرته مع أصحابه .

٩-فضيلة عَمرِو بن تَغْلِبْ رضي الله عنه .

١٠-فيهَ الِاعْتِذَارُ إِلَى مَنْ ظن ظنا وَالْأَمر بِخِلَافِهِ .

٥٢٦ – وعن حكيم بن حزام ﷺ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ (اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنىً، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّهُ الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغنهِ الله) متفقٌ عَلَيْهِ.

٥٢٧ – وعن ابن عمر . أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ، وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ (اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَاليَدُ العُلْيَا هِيَ المُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ) متفقٌ عَلَيْهِ.

==========

١–قوله (**اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى**) فضل عظيم للإنفاق والعطاء .

فالمراد باليد العليا: هي المنفقة. والسفلى: هي السائلة.

كما في حديث الباب (اليد العليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة) .

وجاء في حديث آخر (يد الله فوق يد المعطي، ويد المعطي فوق يد المعطى، ويد المعطى أسفل الأيدي).

وقال ﷺ (الأيد ثلاثة: فيد الله العليا، ويد المعطي التي تليها، ويد السائل السفلى).

وفي حديث آخر (يد الله فوق يد المعطي، ويد المعطي فوق يد المعطى، ويد المعطى أسفل الأيدي).

قال النووي: في هذا الحديث الحثّ على الإنفاق في وجوه الطاعات، وفيه دليل لمذهب الجمهور أن اليد العليا هي المنفقة.

٢–قوله (**وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ**) فيه أن الواجب أن يبدأ الإنسان بمن يعول.

وعليه: يأثم إذا تصدق بصدقة تنقص كفايته وكفاية من يمونه.

لأن النفقة على نفسه وعلى من يعول واجبة، فلا يقدم عليها ما هو تطوع.

وتقدم حديث (دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ أَعْظَمُهَا أَجْراً الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ).

٣ – قوله (**وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنىً**) .

قَالَ الْخَطَّابِيّ: الْمَعْنَى أَفْضَل الصَّدَقَة مَا أَخْرَجَهُ الْإِنْسَانُ مِنْ مَالِهِ بَعْدَ أَنْ يَسْتَبْقِيَ مِنْهُ قَدْرَ الْكِفَايَة.

وقال الحافظ ابن حجر: وَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَفْضَل الصَّدَقَة مَا وَقَعَ مِنْ غَيْرِ مُحْتَاجٍ إِلَى مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ لِنَفْسِهِ أَوْ لِمَنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُه.

وقال القرطبي: وَالْمُخْتَار أَنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ: أَفْضَلُ الصَّدَقَة مَا وَقَعَ بَعْدَ الْقِيَامِ بِحُقُوقِ النَّفْسِ وَالْعِيَال بِحَيْثُ لَا يَصِيرُ الْمُتَصَدِّق مُحْتَاجًا بَعْدَ صَدَقَتِهِ إِلَى أَحَد.

وقال النوويّ رحمه الله: معناه: أفضل الصدقة ما بقي صاحبُها بعدها مستغنيًا بما بقي معه، وتقديره أفضل الصدقة ما أبقت بعدها غنى يَعتمده صاحبها، ويَستظهر به على مصالحه وحوائجه، وإنما كانت هذه أفضل الصدقة بالنسبة إلى من تصدق بجميع ماله؛ لأن من تصدق بالجميع يَندَم غالبًا، أو قد يندم إذا احتاج، وَيوَدّ أنه لم يتصدق، بخلاف من بقي بعدها مستغنيًا، فإنه لا يندم عليها، بل يُسَرّ بها.

(**وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّهُ الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغنهِ الله**) فضل الاستعفاف عن الناس ، وفضل غنى النفس .

(وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ) أي: من طلب العفة وتكلفها أعطاه الله إياه، والاستعفاف: هو الكف عن الحرام، والسؤال من الناس.

(يُعِفهُ اللهُ) أي: يرزقه الله العفة، قال القرطبي: أي يجازه على استعفافه بصيانه وجهه ورفع فاقته.

(وَمَنْ يَسْتَغْنِ) أي: من يستغن بالله عمن سواه، أو يُظهر الغنى بالاستغناء عن أموال الناس. (يُغْنِهِ اللهُ) يرزقه الله غنى القلب.

٤–ففي هذا الحديث دليل على فضل الاستعفاف عن الناس والاستغناء عنهم.

٥٢٨ – وعن أَبي عبد الرحمان معاوية بن أبي سفيان ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (لاَ تُلْحِفُوا في الْمَسْأَلَةِ، فَوَاللهِ لاَ يَسْأَلُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا، فَتُخْرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شَيْئًا وَأَنَا لَهُ كَارِهٌ، فَيُبَارَكَ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتُهُ) رواه مسلم.

==========

(**معاوية بن أبي سفيان**) معاوية بن أبي سفيان، واسم أبي سفيان: صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، ولد معاوية ﷺ قبل البعثة بخمس سنين على الأشهر، وكان هو وأبوه من مسلمة الفتح، ثم من المؤلفة قلوبهم، تولى الشام بعد أخيه يزيد في زمن عمر ﷺ، ولم يزل بها إلى أن مات، وذلك أربعون سنة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لم يكن من ملوك المسلمين مَلِكٌ خير من معاوية، ولا كان الناس في زمان مَلِكٍ من الملوك خيراً منهم في زمان معاوية، إذا نُسبت أيامه إلى أيام من بعده، وأما إذا نسبت إلى أيام أبي بكر وعمر ظهر التفاضل، مات في رجب سنة ستين في دمشق ﷺ .

(**لاَ تُلْحِفُوا في الْمَسْأَلَةِ**) الإلحاف: شدّة الإلحاح في المسألة .

قال النووي : وَالْإِلْحَاف : الْإِلْحَاح .

(**فَوَاللهِ لاَ يَسْأَلُنِي**) بالإلحاح .

(**أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا**) من المال .

١–النهي عن الإلحاح في السؤال، وأنه لا يُبَارَكُ له فيما أُعْطِي .

فسؤال الناس مذموم ، وهو مع الإلحاح : أشد ذمًا ، لما فيه من إهانة الشخص نفسَه ، ولما فيه من أذية الشخص المسئول ، وإيقاعه في الحرج ، وكأن السائل يرغمه على أن يعطيه مسألته .

وقد قال الله تعالى مادحاً أقواماً لتعففهم (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) .

قَالَ ابنُ عبدُ البَرّ: الإِلْحَاحُ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ مَذْمُومٌ؛ لأَنَّهُ قَدْ مَدَحَ اللَّهُ بِضِدِّهِ، فَقَالَ (لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا). اهـ.

وقَدْ مَدَحَ اللهُ الذين لا يُلحِفُونَ في المسألةِ، فقَالَ عزَّ وَجَلّ: (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا).

قَالَ ابنُ كثيرٍ: وَقَوْلُهُ: (لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) أَيْ: لا يُلِحّونَ فِي الْمَسْأَلَةِ وَيُكَلِّفُونَ النَّاسَ مَا لا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، فَإِنَّ مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ عَنِ السُّؤَالِ، فَقَدْ أَلْحَفَ فِي الْمَسْأَلَةِ. اهـ.

قال القرطبيّ رحمه الله: ... والإلحاف: الإلحاح، وإنما نهى عن الإلحاح؛ لما يؤدّي إليه من الإبرام، واستثقال السائل، وإخجال المسؤول، حتى إنه إن أخرج شيئًا أخرجه عن غير طيب نفس، بل عن كراهة وتبرّم، وما استُخرج كذلك لم يُبارك فيه؛ لأنه مأخوذ على غير وجهه، ولذلك قال: "فتُخرِج له المسألة شيئًا، وأنا كارهٌ له .

٢–فمَنْ أَخَذَ بعد إلْحَاحٍ فَقَدْ أَخَذَ ما لا يَحِلُّ لَهُ .

لِقَولِهِ ﷺ (لا يَحِلُّ مَالَ امرئٍ إلاَّ بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ) رَواهُ الإمَامُ أحمدُ .

ولحديث الباب (لا تُلْحِفُوا فِي الْمَسْأَلَةِ ...) .

٣–نزع البركة من المال الذي أخذ بإلحاح .

٤–ذم سؤال الناس .

٥–الواجب على المسلم سؤال الله تعالى العلي القدير الرزاق والإلحاح عليه .

قال ابن تيمية : فَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ: أَكْرَمُ مَا تَكُونُ عَلَيْهِ أَحْوَجُ مَا تَكُونُ إلَيْهِ. وَأَفْقَرُ مَا تَكُونُ إلَيْهِ، وَالْخَلْقُ: أَهْوَنُ مَا يَكُونُ عَلَيْهِمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إلَيْهِم.

٥٢٩ – وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ (لاَ تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى الله تَعَالَى وَلَيْسَ في وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ) متفقٌ عَلَيْهِ.

«**المُزْعَةُ**» **بضم الميم وإسكان الزاي وبالعينِ المهملة: القِطْعَةُ.**

٥٣٠ – وعن أَبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكَثُّرًا فإنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا؛ فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ).

رواه مسلم

٥٣١ – وعن سَمُرَةَ بنِ جُنْدبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (إنَّ المَسْأَلَةَ كَدٌّ يَكُدُّ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ، إلاَّ أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ سُلْطَانًا أَوْ في أمْرٍ لاَ بُدَّ مِنْهُ). رواه الترمذي، وقال: «حديث حسن صحيح».

«**الكد**»: **الْخَدْشُ وَنَحْوُهُ.**

==========

(**وَلَيْسَ في وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ**) اختلف في معناها :

فقيل: يأتي ساقطاً لا قدر له ولا جاه.

وقيل: يعذب في وجهه حتى يسقط لحمه.

وقيل: يبعث ووجهه عظم كله، فيكون ذلك شعاره الذي يعرف به .

وَهَذَا فِيمَنْ سَأَلَ لِغَيْرِ ضَرُورَة سُؤَالًا مَنْهِيًّا عَنْهُ وَأَكْثَرَ مِنْهُ ، كَمَا فِي الرِّوَايَة الْأُخْرَى . (مَنْ سَأَلَ تَكَثُّرًا) .

(**مَنْ سَأَلَ اَلنَّاسَ أَمْوَالَهُمْ**) أي: شيئاً من أموالهم.

(**تَكَثُّرًا**) أي: لأجل أن يكثر به ماله، لا لاحتياجه إليه.

(**فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا**) أي: قطعة من نار جهنم.

(**فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ**) أي: فليستقل الجمر أو ليستكثره، فيكون تهديداً على سبيل التهكم.

(**إنَّ المَسْأَلَةَ**) أي : سؤال الناس أموالهم .

(**كَدٌّ**) الكَدُّ: الخدش ونحوه .

(**أَوْ في أمْرٍ لاَ بُدَّ مِنْهُ**) فتحل المسألة فيما دعت الضرورة إليه .

١ – هذه الأحاديث دليل على أن سؤال الناس من غير حاجة ولا ضرورة حرام، ومما يدل على ذلك:

عَنِ اَلزُّبَيْرِ بْنِ اَلْعَوَّامِ ﷺ عَنِ اَلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ اَلْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اَللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ اَلنَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ) رَوَاهُ اَلْبُخَارِيُّ.

قال ابن تيمية : مَسْأَلَةُ الْمَخْلُوقِ "مُحَرَّمَةً فِي الْأَصْلِ وَإِنَّمَا أُبِيحَتْ لِلضَّرُورَةِ وَفِي النَّهْيِ عَنْهَا أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ" .

وقال ابنُ القيم: مَسْأَلَةُ الْمَخْلُوقِ مُحَرَّمَةً فِي الأَصْلِ، وَإِنَّمَا أُبِيحَتْ لِلضَّرُورَةِ.

٢ – **خطورة سؤال الناس:**

أولاً: يأتي يوم القيامة منزوع اللحم.

للحديث الباب (مَا يَزَالُ اَلرَّجُلُ يَسْأَلُ اَلنَّاسَ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ).

ثانياً : سؤال الناس كد وخدش في الوجه .

لحديث الباب (إِنَّ المسْأَلَةَ كَدٌّ يَكُدُّ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ) .

ثالثاً: من سأل الناس فإنه يسأل جمراً.

لحديث الباب (مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا ...).

رابعاً: عدم سؤال الناس من أسباب دخول الجنة.

قال ﷺ (من يكفل لي أن لا يسأل الناس شيئاً وأتكفل له بالجنة) رواه أبو داود.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَقَالَ: هُمْ الَّذِينَ لَا يسترقون وَلَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) فَمَدَحَ هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُمْ لَا يسترقون أَيْ لَا يَطْلُبُونَ مِنْ أَحَدٍ أَنْ يَرْقِيَهُمْ، وَالرُّقْيَةُ مِنْ جِنْسِ الدُّعَاءِ فَلَا يَطْلُبُونَ مِنْ أَحَدٍ ذَلِك.

خامساً : سؤال الناس لا خير فيه للمقتدر.

للحديث السابق (لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِي بِحُزْمَةِ اَلْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اَللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ ...)؟

سادساً : من سأل من غير ضرورة ولا حاجة مُلِحَّة؛ إنما يفتح على نفسه باب الفقر.

قال ﷺ (ثَلاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ – وذكر منها – وَلا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْر) رواه الترمذي .

٣ – الحكمة من النهي عن سؤال المخلوقين :

قال أبو حامد الغزالي : والسؤال في الأصل أنه حرام، وإنما يُباح لضرورة أو حاجة مُلِحة قريبة من الضرورة؛ لِما فيه من الشكوى من الله تعالى، وفيه إظهار قصور نعمة الله على عبده، وهو عين الشكوى، وفيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى، وكذلك أنه لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالبًا؛ فقد يعطيه حياءً أو رياءً، وهذا حرام على الآخذ . (الإحياء)

و**قال شيخ الإسلام:** إن سؤال المخلوقين فيه ثلاثة مفاسد:

مفسدة الافتقار إلى غير الله، وهي من نوع الشرك.

ومفسدة إيذاء المسؤول، وهي من نوع ظلم الخلق.

وفيه ذل لغير الله، وهو ظلم للنفس، فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة.

وقال: وأما سؤال المخلوق المخلوق أن يقضي حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر به بخلاف سؤال العلم.

وقال: وأما المخلوق فكما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، وأفضِل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره.

وقال رحمه الله مبيناً سبب النهي عن سؤال المخلوقين قال:

فَأَعْظَمُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ قَدْرًا وَحُرْمَةً عِنْدَ الْخَلْقِ: إذَا لَمْ يَحْتَجْ إلَيْهِمْ بِوَجْهِ مِنْ الْوُجُوهِ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ إلَيْهِمْ مَعَ الِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُمْ: كُنْتَ أَعْظَمَ مَا يَكُونُ عِنْدَهُمْ، وَمَتَى احْتَجْتَ إلَيْهِمْ – وَلَوْ فِي شَرْبَةِ مَاءٍ – نَقَصَ قَدْرُكَ عِنْدَهُمْ بِقَدْرِ حَاجَتِكَ إلَيْهِمْ، وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَلَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ. (مجموع الفتاوى).

وقال: فَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ: أَكْرَمُ مَا تَكُونُ عَلَيْهِ أَحْوَجُ مَا تَكُونُ إلَيْهِ. وَأَفْقَرُ مَا تَكُونُ إلَيْهِ، وَالْخَلْقُ: أَهْوَنُ مَا يَكُونُ عَلَيْهِمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إلَيْهِم.

وقال: وَلِهَذَا كَانَتْ (مَسْأَلَةُ الْمَخْلُوقِ) مُحَرَّمَةً فِي الْأَصْلِ وَإِنَّمَا أُبِيحَتْ لِلضَّرُورَةِ وَفِي النَّهْيِ عَنْهَا أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ وَالْمَسَانِيد، ... ثم ذكر حديث الباب وقال: وَفِي الْمُسْنَدِ (أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يَسْقُطُ السَّوْطُ مِنْ يَدِهِ فَلَا يَقُولُ لِأَحَدِ نَاوِلْنِي إيَّاهُ؛ وَيَقُولُ: إنَّ خَلِيلِي أَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا) وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَايَعَهُ فِي طَائِفَةٍ وَأَسَرَّ إلَيْهِمْ كَلِمَةً خَفِيَّةً: أَنْ لَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا فَكَانَ بَعْضُ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ السَّوْطُ مِنْ يَدِ أَحَدِهِمْ؛ وَلَا يَقُولُ لِأَحَدِ نَاوِلْنِي إيَّاهُ).

وقال ابن رجب: وفي النَّهي عن مسألة المخلوقين أحاديثُ كثيرة صحيحة، وقد بايع النبيُّ ﷺ جماعةً من أصحابه على أنْ لا يسألوا النَّاسَ شيئاً، منهم: أبو بكر الصدِّيق، وأبو ذر، وثوبان، وكان أحدهم يسقط سوطُه أو خِطام ناقته، فلا يسأل أحداً أنْ يُناوله إياه.

وقال رحمه الله مبيناً سبب النهي عن سؤال المخلوق قال:

واعلم أنَّ سؤالَ اللهِ تعالى دونَ خلقه هوَ المتعين؛ لأنَّ السؤال فيهِ إظهار الذلِّ من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعترافُ بقدرةِ المسؤول على دفع هذا الضَّرر، ونيل المطلوب، وجلبِ المنافع، ودرء المضارِّ، ولا يصلح الذلُّ والافتقار إلاَّ لله وحدَه؛ لأنَّه حقيقة العبادة، وكان الإمامُ أحمد يدعو ويقول: اللهمَّ كما صُنتَ وجهي عَنِ السُّجود لغيرك فصُنْه عن المسألة لغيرك، ولا يقدر على كشف الضرِّ وجلب النفع سواه. كما قال (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ)، وقال (مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ).

والله سبحانه يحبّ أنْ يُسأل ويُرْغَبَ إليه في الحوائج، ويُلَحَّ في سؤاله ودُعائه، ويَغْضَبُ على من لا يسأله، ويستدعي مِنْ عباده سؤاله، وهو قادر على إعطاء خلقه كُلِّهم سُؤْلَهم من غير أنْ يَنْقُصَ من ملكه شيء، والمخلوق بخلاف ذلك كله: يكره أنْ يُسأل، ويُحبُّ أنْ لا يُسألَ، لعجزه وفقره وحاجته. ولهذا قال وهب بن منبه لرجل كان يأتي الملوك: ويحك، تأتي من يُغلِقُ عنك بابَه، ويُظهِرُ لك فقرَه، ويواري عنك غناه، وتدع من يفتحُ لك بابه بنصف الليل ونصف النهار، ويظهر لك غناه، ويقول: ادعني أستجب لك؟

وقال طاووس لعطاء: إياك أنْ تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه وبجعل دونها حجابه، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أنْ تسأله، ووعدك أنْ يُجيبك .

٤-كَانَ الصَّحابةُ ﷺ يَسْتَعِفّونَ عمّا يأتيهم مِنْ مَالٍ، وإنْ كَانَ لَهُمْ فيهِ حَقٌّ.

كما في حديث حكيم بن حزام السابق (وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ، يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى العَطَاءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ ...) .

وربما عَمِلَ الرَّجُلُ في عَمَلٍ دنيء ولا يُعَرِّض نَفْسَه لِمَسألةِ الناس.

قال الأصمعيُّ: مَرَرتُ في بعضِ سِكَكِ الكُوفةِ فإذا رَجُلٌ خَرَجَ مِن حُشّ [والحُشُّ هو مكانُ قضاءِ الحاجة] على كَتِفِه جَرَّة، وهو يقول:

وأُكْرِمُ نَفْسِي إنني إن أهَنْتُها *** وَحَقِّكَ لم تُكْرَمْ على أحَدٍ بَعْدي

قال الأصمعيُّ: فقلت له: أبِمثلِ هذا تُكْرِمها؟ قال: نعم! وأسْتَغْنِي عن مَسألةِ مِثْلِك. فَصَاحَ: يا أصمعي! فالْتَفَتُّ فقال:

لَنَقْلُ الصَّـخْرِ مِـن قُلَلِ الجبـالِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِنَنِ الرِّجَـالِ

يَقُولُ النَّاسُ لي في الكَسْبِ عارٌ فقلتُ العارُ في ذُلِّ السُّؤالِ

كَانَ الواجِدُ منهم يَبِيتُ جائعاً طاوياً ولا يَسألُ النَّاسَ شيئاً.

بَلْ كَانَ أحدُهُم يَسْقُطُ مَغشيًّا عَليهِ مِنَ الْجُوعِ ولا يُعرِّضُ نَفْسَهُ لِلمَذَلَّةِ والْمَسألةِ.

قال ابنُ القيمِ: سُؤالُ النَّاسِ عيبٌ وَنقصٌ فِي الرَّجُلِ وذِلَّةٌ تنَافِي الْمُرُوءَةَ إلاَّ فِي الْعِلْم.

قال الشاعر:

لا تَسْـأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَـاجَـةً وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُه لا تُحْجَبُ

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

قال الشاعر:

لنقـلُ الصـخر من قلل الجبـال أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِنَنِ الرِّجَـالِ

يَقُولُ النَّاسُ لي في الكسْبِ عارٌ فقلتُ العار في ذُلِّ السؤال

وَذُقْـتُ مَـرَارَة الأَشـيَـاء جَمْـعًا فَمَا طَعْـمٌ أمَرُّ مِنَ السُّـؤَالِ

كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز: يا أخي، من استغنى بالله اكتفى، ومن انقطع إلى غيره تعنَّى، ومن كان من قليل الدنيا لا يشبع، لم يُغْنِهِ منها كثرةُ ما يجمع، فعليك منها بالكَفاف، وألْزِمْ نفسَك العَفاف، وإياك وجمعَ الفُضول؛ فإن حسابه يطول.

وعن سعيد بن المسيب قال : من استغنى بالله افتقر إليه الناس .

٥ – **قال النووي** : النَّهْي عَنْ السُّؤَال ، وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاء عَلَيْهِ إِذَا لَمْ تَكُنْ ضَرُورَةٌ ، وَاخْتَلَفَ أَصْحَابنَا فِي مَسْأَلَة الْقَادِر عَلَى الْكَسْب عَلَى وَجْهَيْنِ أَصَحُّهُمَا : أَنَّهَا حَرَام ؛ لِظَاهِرِ الْأَحَادِيث . وَالثَّانِي : حَلَال مَعَ الْكَرَاهَة بِثَلَاثِ شُرُوط : أَلَّا يُذِلَّ نَفْسه ، وَلَا يُلِحَّ فِي السُّؤَال ، وَلَا يُؤْذِيَ الْمَسْئُول ، فَإِنْ فُقِدَ أَحَد هَذِهِ الشُّرُوط فَهِيَ حَرَام بِالِاتِّفَاقِ . وَاَللَّه أَعْلَم . (شرح مسلم)

٦–قوله (**وليس في وجهه** ...) .

قال القرطبي : وخصَّ الوجه بهذا النوع لأن الجناية به وقعت؛ إذ قد بذل مِن وجهه ما أُمِرَ بصونه عنه، وتصرَّف به في غير ما سُوغ له .

وقال ابن بطال : قال عبد الواحد: عُوقِب في وجهه بأنْ جاء لا لحم فيه، فجازاه الله من جنس ذنبه حين بَذَلَ وجهه وعنده كفاية.

٧–قوله (ما يزال الرجل يسأل ...)

قال ابن حجر : في هذا الحديث: أن هذا الوعيد يختصُّ بمن أكثر السؤال، لا مَن نَدَر ذلك منه .

٨–**قال ابن الملقن** : ولا يَحلّ للفقير أن يُظْهِر من المسألة أكثر مما به.

٩–الواجب سؤال الخالق.

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ).

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى (وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ).

وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ (إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ؛ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ).

وَمِنْهُ قَوْلُ الْخَلِيلِ (فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ) وَلَمْ يَقُلْ فَابْتَغُوا الرِّزْقَ عِنْدَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ الظَّرْفِ يُشْعِرُ بِالِاخْتِصَاصِ وَالْحَصْرِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ لَا تَبْتَغُوا الرِّزْقَ إلَّا عِنْدَ اللَّهِ.

وقد ثبت في "الصحيحين" عن النَّبيِّ ﷺ (أنَّ الله – عز وجل – يقولُ: هل من دَاعٍ، فأستجيبَ له؟ هل من سائل فأُعْطِيَه؟ هل من مُستغفرٍ فأغْفِرَ له؟).

وقال ﷺ (من لم يسأل الله يغضب عليه) رواه ابن ماجه.

استحق الغضب لأمرين:

الأول: لأنه ترك محبوباً لله، فإن الله يحب أن يسأل . (ذكر ذلك المناوي)

والثاني: لأن ترك الدعاء دليل على الكبر والاستغناء عن الله. (ذكر ذلك المباركفوري)

فائدة:

هل سؤال العلم داخل في النهي؟

لا.

قال ابن تيمية: فَأَمَّا سُؤَالُ مَا يَسُوغُ مِثْلُهُ مِنْ الْعِلْمِ: فَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْبَابِ لِأَنَّ الْمُخْبِرَ لَا يُنْقِصُ الْجَوَابُ مِنْ عِلْمِهِ بَلْ يَزْدَادُ بِالْجَوَابِ وَالسَّائِلُ مُحْتَاجٌ إلَى ذَلِكَ قَالَ ﷺ (هَلَّا سَأَلُوا إذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟ فَإِنَّ شِفَاءَ الْعَيِّ السُّؤَالُ).

١٠ – استثنى العلماء من ذم السؤال حالتين:

الحالة الأولى: أن يطلب من السلطان.

لأن طلبه من السلطان له وجه، لأنه قد يكون له حق من بيت المال.

الحالة الثانية: السؤال للحاجة.

قال الصنعاني: "وأما سؤاله السلطان فإنه لا مَذَمَّة فيه؛ لأنه إنما يسأل مما هو حقٌّ له في بيت المال، ولا مِنَّة للسلطان على السائل؛ لأنه وكيل، فهو كسؤال الإنسان وكيله أن يعطيه من حقه الذي لديه .

١١ – أن سؤال الناس من حاجة لا بأس بها، وقد قال تعالى (وأما السائل فلا تنهر).

١٢– ضابِطُ جوازِ سؤالِ الناس: أن لا يَجِدَ الإنسانُ غداءً أو عشاءً.

قال رسولُ الله ﷺ (مَنْ سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يُغْنِيهِ، فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَمَا يُغْنِيهِ؟ قَالَ: مَا يُغَدِّيهِ أَوْ يُعَشِّيهِ) رواه أحمد .

وسُئلَ الإمامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ مَتَى تَحِلُّ؟ قَالَ: إِذَا لَمْ يَكُنْ عنده مَا يُغَذِّيهِ وَيُعَشِّيهِ... قِيلَ: فَإِنِ اضْطُرَّ إِلَى الْمَسْأَلَةِ؟ قَالَ: هِيَ مُبَاحَةٌ لَهُ إِذَا اضْطُرَّ. قِيلَ لَهُ: فَإِنْ تَعَفَّفَ؟ قَالَ: ذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ. ثُمَّ قَالَ: مَا أَظُنُّ أَحَدًا يَمُوتُ مِنَ الْجُوعِ اللَّهُ يَأْتِيهِ بِرِزْقِهِ.

١٣ – أن الجزاء من جنس العمل، فحيث كان وجهه هو الذي يسأل ويقابل الناس عند السؤال، صار العذاب –يوم القيامة– منصباً عليه، والجزاء من جنس العمل .

١٤ – إثبات البعث والحساب.

٥٣٢ – عن عوف بن مالِك الأَشْجَعِيّ ﷺ قَالَ (كُنَّا عِنْدَ رسول الله ﷺ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً، فَقَالَ: «ألاَ تُبَايِعُونَ رسولَ الله ﷺ وَكُنَّا حَديثِي عَهْدٍ ببَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رسولَ اللهِ، ثمَّ قالَ: «ألا تُبَايِعُونَ رسولَ اللهِ» فَبَسَطْنا أيْدينا، وقلنا: قدْ بايعناكَ فَعَلامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ : عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَتُطِيعُوا الله» وأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيفَةً : وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوطُ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إيّاهُ) . رواه مسلم.

٥٣٣ – وعن ثوبان ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (مَنْ تَكَفَّلَ لِي أَنْ لاَ يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟» فقلتُ: أنَا، فَكَانَ لاَ يَسْأَلُ أحَدًا شَيْئًا) رواه أَبُو داود بإسناد صحيح.

==========

(**فَقَالَ: «ألاَ تُبَايِعُونَ رسولَ الله**) (ألا) هنا للعرض والتحضيض، ومعناهما طلب الشيء، لكن العرض طلب بلين، والتحضيض طلب بحَث .

(**وَكُنَّا حَديثِي عَهْدٍ ببَيْعَةٍ**) أي : قريب زمن بمبايعته ﷺ .

(**فَبَسَطْنا أيْدينا**) أي : للمبايعة له ﷺ؛ امتثالًا لأمره .

(**وقلنا: قدْ بايعناكَ**) أرادوا أن يستوضحوا ما هي البيعة المطلوبة منهم الآن؟ كما يدل عليه قولهم (فَعَلَامَ نُبَايِعُكَ؟) .

(**أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**) فيه وجوب عبادة الله وعدم الإشراك به أبداً .

(**وَالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ**) أي : وعلى إقامة الصلوات الخمس .

(**وَتُطِيعُوا الله**) وفي رواية أبي داود (وتسمعوا، وتطيعوا) أي تسمعوا، وتطيعوا أمر وُلاة الأمور الذين ولاهم الله تعالى عليكم إذا أمروكم بغير معصية الله تعالى .

(**وأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيفَةً**) من الإسرار .

(**وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا**) وفي رواية النسائيّ (وأن لا تسألوا الناس شيئًا) .

١–في هذه الأحاديث الحث على عدم سؤال الناس شيئاً .

قال النووي : فيه الحث على التنزيه عن جميع ما يسمى سؤالاً وإن كان حقيراً والله أعلم . (شرح مسلم)

فمن لم يسأل شيئاً ضمن له النبي ﷺ الجنة .

كما في حديث ثوبان (مَنْ تَكَفَّلَ لِي أَنْ لاَ يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟) .

وبايع النبي ﷺ بعض الصحابة على ذلك .

كما في حديث الباب (وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا ...) .

وفي المسند (أن أبا بكر كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولني إياه، ويقول: إن خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً).

وأمر ﷺ أبا ذر بذلك :

عن أبي ذَرّ ﷺ قال: (أَمَرَنِي خَلِيلِي ﷺ بِسَبْعٍ: ... وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا..) رواه أحمد .

وبين ﷺ أن العز بالاستغناء عن الناس .

كما قال ﷺ (واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس) .

٢-لم يبايع النبي ﷺ جميع الصحابة عليه، ولم يأمرهم به، وقد استنبط بعض العلماء ذلك من إسراره ﷺ بهذه الكلمة .

قال العيني : قوله : (وأسر كلمة خفية) يشبه أن يكون ﷺ أسر النهي عن السؤال، ليخص به بعضهم دون بعضه ولا يعمهم بذلك ؛ لأنه لا يمكن العموم، إذ لا بد من السؤال، ولا بد من التعفف ، ولا بد من الغنى، ولا بد من الفقر ، وقد قضى الله تبارك وتعالى بذلك كله، فلا بد أن ينقسم الخلق إلى الوجهين " انتهى

وقال في "المنهل": والحكمة في إسرار النهي عن السؤال أن يختص به بعضهم دون بعض؛ لأنَّ مِنَ الناس مَنْ لا بُدَّ له من السؤال لحاجته، ومنهم الغني عنه بماله، أو بالتعفف. انتهى .

٣-**قال القرطبي** : وأخذه ﷺ على أصحابه في البيعة ألا يسألوا أحداً شيئاً : حملٌ منه على مكارم الأخلاق ، والترفع عن تحمل منة الخلق ، وتعليم الصبر على مضض الحاجات ، والاستغناء عن الناس ، وعزة النفوس ، ولما أخذهم بذلك التزموه في جميع الأشياء وفي كل الأحوال ، حتى فيما لا تلحق فيه منة ؛ طرداً للباب ، وحسماً للذرائع . (المفهم)

٤-فضيلة ثوبان رضي الله عنه .

٥-حرص الصحابة على الالتزام بعهودهم.

٦-تربية النفس وتهذيبها على الاستغناء عن الناس.

٧-الترغيب بالجنة.

٥٣٤ – وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا باللهِ، فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ) رواه أَبُو داود والترمذي، وقال: «حديث حسن».

«يُوشِكُ» بكسر الشين: أيْ يُسْرِعُ.

==========

(**مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ**) أيْ : حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ وَأَكْثَرُ اِسْتِعْمَالِهَا فِي الْفَقْرِ وَضِيقِ الْمَعِيشَةِ .

قال الملا علي القاري -رحمه الله- «فَاقَة» أي: حاجةٌ شديدةٌ، وأكثرُ استعمالها في الفَقر، وضِيق المعيشةِ .

(**فَأَنْزَلَهَا بالنَّاسِ**) أَيْ : عَرَضَهَا عَلَيْهِمْ وَأَظْهَرَهَا بِطَرِيقِ الشِّكَايَةِ لَهُمْ وَطَلَبَ إِزَالَةَ فَاقَتِهِ مِنْهُمْ .

(**لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ**) أَيْ : لَمْ تُقْضَ حَاجَتُهُ وَلَمْ تُزَلْ فَاقَتُهُ وَكُلَّمَا تُسَدُّ حَاجَتُهُ أَصَابَتْهُ أُخْرَى أَشَدُّ مِنْهَا .

(**وَمَنْ أَنْزَلَهَا باللهِ**) سبحانه وتعالى واعتمد عليه .

(**فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ**) أَيْ : يُسْرِعُ لَهُ وَيُعَجِّلُ .

١-الحديث دليل على الحث على سؤال الله -عز وجل-، والالتجاء إليه عند الشدائد وهموم الحاجات، فهو الذي يقضيها.

٢-الحديث دليل على أن من نزلت فاقة كفقر أو مرض فأنزلها بالناس معتمداً عليهم لم تسد فاقته .

لماذا ؟

قال المناوي : (**لم تُسدَّ فاقتُه**) لتَرَكه القادرَ على حوائج جميع الخَلق الذي لا يُغلقُ بابَه، وقصد من يعجزُ عن جلب نفع نفسِه، ودفْع ضرهَا.

وقال الصنعاني : (**لم تُسدّ فاقتُه**) لأنه أنزلها بمحتاجٍ مثله، فقيرٍ إلى غيره، وترك القادرَ على كل شيء، فغاية ما يفعله الناس أن تُسد خُلّتُه في حينه.

وقال ابن رسلان : (**لم تُسَدَّ فاقتُه**) بل يغضبُ الله على من أنزل حاجته بغيره العاجِز، وهو قادر على قضاء حوائج خلقِه كلِّهم، من غير أن ينقُص من ملكه شيءٌ، وقد قال وهب بن منبه لمن كان يأتي الملوك: ويحك تأتي من يُغلقُ عنك بابَه، ويواري عنك غِناه، وتدعُ من يفتح لك بابه بنصف الليل ونصف النهار، ويُظهر لك غناه ... فالعبد عاجزٌ عن جلب مَصالِحِه، ودفع مضارِّه، ولا مُعين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله .

وقال الشيخ عبد المحسن العباد : (**لم تُسَدَّ فاقتُه**) أي: إذا اعتمد على الناس وعوَّل عليهم، وغَفلَ عن الله -عز وجل- فإنها لا تُسدُّ فاقتُه.

٢-**قال العيني** :قوله (فأنزلَها بالنَّاسِ) يعني: عرضها عليهم، وطلب سدادَها منهم، وسألهم في ذلك، لم تُسَدَّ حاجتُه؛ لكونه سأل عاجزين مِثلَه .

٣- **قال ابن تيمية** : فإنزال الفَاقَة بالناس أنْ يشكو إليهم، ويترك الشكوى إلى الله، فلو كانت الاستغاثة بالمخلوق جائزة لجاز إنزالها بالناس، وقد قال يعقوب عليه السلام (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) وقال تعالى (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) .

وقال النبي ﷺ لابن عباس: «إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله .

ورأى الفضيل بن عياض رجلًا يشكو إلى رجل، فقال: يا هذا أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟!

وقال بعضهم: ذَكَر الله الصبرَ الجميلَ، والهجر الجميل، والصَّفح الجميل، فالصبر الجميل الذي ليس فيه شكوى إلى المخلوق، والهجر الجميل الذي ليس فيه أذى، والصفح الجميل الذي ليس فيه عتابٌ. (الاستغاثة)

٤-**قال محمود السبكي** : دلَّ الحديث على التنفير من سؤال الخلق، والاعتماد عليهم، وعلى الترغيب في سؤال الله تعالى، وحُسن التوكل عليه؛ فإنه المُعطي المانع، ومن يتوكل عليه فهو حسبه.

٥-**قال ابن القيم** : والشَّكوى إلى الله -عز وجل- لا تنافي الصبر، فإنَّ يعقوب عليه السلام وَعَدَ بالصبر الجميل، والنبي إذا وَعَدَ لا يُخلِف، ثم قال إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) وكذلك أيوب أخبر الله عنه أنه وجده صابرًا مع قوله (مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى إليه، كما رأى بعضهم رجلًا يشكو إلى آخر فَاقَة وضرورة، فقال: يا هذا، تشكو من يرحمُك إلى مَن لا يرحمُك؟ ثم أنشده:

وإذا عَـرَتـكَ بَلِيَّـةٌ فاصبِر لها *** صـبرَ الكـريمِ فإنَّـه بـك أعلمُ

وإذا شَكوتَ إلى ابنِ آدمَ إنما *** تشكُو الرَّحيم إلى الذي لا يرحم (المدارج)

٦-الحض على الصبر على العيش الشديد وعدم الشكوى للناس.

٧-تنفير العبد من الاعتماد على غير الله في تحقيق سؤله أو دفع كربه.

٨-من اعتمد على غير الله ضل، ومن اعتز بغير الله ذل، ومن فوض أمره إلى الله وصل.

٩-من أجل مقاصد الشريعة الإسلامية صيانة شخصية المسلم عن التبذل ، وحفظ ماء وجهه عن المهانة .

١٠-وسؤال الله تعالى وحسن الالتجاء إليه مع الاستعفاف عن سؤال الناس أصل عظيم من أصول الدين شواهده كثيرة من الكتاب والسنة .

٥٣٥ – وعن أَبِي بِشْرٍ قَبِيصَةَ بنِ المُخَارِقِ ﷺ قَالَ (تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رسولَ الله ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: «أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا» ثُمَّ قَالَ: «يَا قَبِيصةُ، إِنَّ المَسْأَلَةَ لاَ تَحِلُّ إِلاَّ لأَحَدِ ثلاثَةٍ: رَجُلٌ تحمَّلَ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَها، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قوامًا مِنْ عَيش – أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ – وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ، حَتَّى يَقُولَ ثَلاَثَةٌ مِنْ ذَوِي الحِجَى مِنْ قَوْمِه: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلانًا فَاقَةٌ. فَحلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يصيب قوامًا من عيش، أَوْ قَالَ: سدادًا من عيشٍ، فما سِوَاهُنَّ مِنَ المسألَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتٌ، يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا». رواه مسلم.

==========

(وَعَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ اَلْهِلَالِي) صحابي سكن البصرة.

(إِنَّ اَلْمَسْأَلَةَ) وعند النسائي (إن الصدقة) وأول الحديث (عن قبيصة قال: تحملتُ حمالةً فأتيتُ رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها، ثم قال: يا قبيصة إن المسألة ...).

(حَتَّى يُصِيبَهَا) أي: ينال من المال ما يقضي به تلك الحمالة.

(ثُمَّ يُمْسِكَ) أي: يترك مسألة الناس، لانقضاء سبب حل مسألتهم.

(وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ) الجائحة: هي الآفة التي تهلك الثمار والأموال، وتستأصلها، كالغرق والحرْق والبرد المفسد للزروع والثمار.

(حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ) أي: ما يقوم بحاجته الضرورية.

(وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ) أي: رجل كان غنياً ثم افتقر، وأصابته حاجة ولم يعرف حاله.

(حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ) وفي رواية النسائي (حتى يشهد ثلاثة).

(مِنْ ذَوِي الْحِجَى) أي العقل.

(مِنْ قَومِهِ) لأنهم أعلم بحاله.

(فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ اَلْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتٌ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا) السحت: كل مال حرام، وسمي به لأنه يسحت ويمحق المال.

١–تقدم أن الأصل في سؤال الناس التحريم إلا لضرورة أو حاجة .

٢–يستثنى من ذلك ٣ حالات ذكرت في هذا الحديث :

أ–(رَجُلٌ تحمَّلَ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَها، ثُمَّ يُمْسِكُ) .

قال الخطابي: تفسير الحَمَالة أن يقع بين القوم التشاجر في الدماء والأموال، ويحدث بسببهما العداوة والشحناء، ويُخاف من ذلك الفتق العظيم، فيتوسط الرجل فيما بينهم، ويسعى في إصلاح ذات البين، ويتضمن مالاً لأصحاب الطوائل، يترضاهم بذلك حتى تسكن الثائرة، وتعود بينهم الألفة.

وقال النووي: الحَمالة: هِيَ بِفَتْحِ الْحَاء، وَهِيَ الْمَال الَّذِي يَتَحَمَّلهُ الْإِنْسَان أَيْ يَسْتَدِينُهُ وَيَدْفَعهُ فِي إِصْلَاح ذَات الْبَيْن كَالْإِصْلَاحِ بَيْن قَبِيلَتَيْنِ وَنَحْو ذَلِكَ، وَإِنَّمَا تَحِلّ لَهُ الْمَسْأَلَة، وَيُعْطَى مِنْ الزَّكَاة بِشَرْطِ أَنْ يَسْتَدِينَ لِغَيْرِ مَعْصِيَةٍ.

ب– (وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قوامًا مِنْ عَيش) .

الجائحة: هي الآفة التي تهلك الثمار والأموال، وتستأصلها، كالغرق والحرْق والبرد المفسد للزروع والثمار.

ج-(**وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ**) الفَاقَةُ : الفَقْرُ .

أي : رجل ادعى أنه أصابته فاقة وفقر بعد الغنى.

لكن يشترط لإعطاء هذا (من ادعى فاقة بعد غنى) :

الشرط الأول: أن يشهد ثلاثة رجال.

الشرط الثاني: من ذوي العقول.

الشرط الثالث: أن يكونوا من قومه.

٣-لماذا اشترط النبي ﷺ أن يكون من ذوي العقول؟

قال النووي: وَإِنَّمَا شَرَطَ الْحِجَا تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّهُ يُشْتَرَط فِي الشَّاهِد التَّيَقُّظ فَلَا تُقْبَل مِنْ مُغَفَّلٍ.

وقال الشوكاني: وإنما جعل العقل معتبراً، لأنه من لا عقل له لا تحصل الثقة بقوله.

٤-لماذا اشترط النبي ﷺ أن يكونوا من قومه؟

قال النووي: وَإِنَّمَا قَالَ ﷺ (مِنْ قَوْمه) لِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْل الْخِبْرَة بِبَاطِنِهِ، وَالْمَال مِمَّا يَخْفَى فِي الْعَادَة فَلَا يَعْلَمهُ إِلَّا مَنْ كَانَ خَبِيرًا بِصَاحِبِهِ.

٥-لماذا لم يشترط في الجائحة هذه الشروط (لم يحتج إلى بيّنة)؟

قال القرطبي: ولم يحتج فيمن أصابته الجائحة إلى مثل هذا، لظهور أمر الجائحة، وأما أمر الفاقة فقد تخفى .

٦-الحديث دليل على أن المحرّم لا بركة فيها .

لقوله تعالى (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَات).

ب- حديث الباب (فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتٌ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا).

ج- حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي وفيه: (...فَمَنْ يَأْخُذْ مَالاً بِحَقِّهِ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ يَأْخُذْ مَالاً بِغَيْرِ حَقِّهِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الَّذِي يَأْكُلُ وَلا يَشْبَع) متفق عليه.

وفي لفظ (إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ).

قال ابن حجر رحمه الله: وفيه أن المكتسب للمال من غير حله لا يُبارك له فيه لتشبيهه بالذي يأكل ولا يشبع، وفيه ذم الإسراف، وكثرة الأكل والنهم فيه، وأن اكتساب المال من غير حله، وكذا إمساكه عن إخراج الحق منه سبب لمحقه فيصير غير مبارك، كما قال تعالى: (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَات) .

٧-تحريم السؤال إلا في هذه الحالات الثلاثة.

٨-جواز المسألة لمن وجدت فيه إحدى القرائن المذكورة.

٩-من جازت له المسألة لا يسأل أكثر مما يسد حاجته.

٥٣٦ – وعن أَبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ (لَيْسَ المسكينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلكِنَّ المِسكينَ الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنىً يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلَ النَّاسَ) متفقٌ عَلَيْهِ.

==========

الحديث تقدم شرحه (٢٦٤) .

معنى الحديث :

قال النووي: مَعْنَاهُ: الْمِسْكِين الْكَامِل الْمَسْكَنَة الَّذِي هُوَ أَحَقّ بِالصَّدَقَةِ وَأَحْوَج إِلَيْهَا لَيْسَ هُوَ هَذَا الطَّوَّاف، بَلْ هُوَ الَّذِي لَا يَجِد غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ وَلَا يَسْأَل النَّاس. وَلَيْسَ مَعْنَاهُ نَفْيَ أَصْل الْمَسْكَنَة عَنْ الطَّوَّاف، بَلْ مَعْنَاهُ نَفْي كَمَال الْمَسْكَنَة كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ...) إِلَى آخِر الْآيَة.

وقال وليّ الدين رحمه الله: قال العلماء: معنى الحديث أن المسكين الكامل المسكنة هو المتعفّف الذي لا يطوف على الناس، ولا يسألهم، ولا يُفْطَن لحاله، وليس معناه نفي أصل المسكنة عن الطَّوَّاف، وإنما معناه نفي كمالها، وهذا كقوله ﷺ : أتدرون من المفلس؟ ... "الحديث" وكقوله ﷺ (أتدرون من الرَّقُوب؟ ...) وكقوله تعالى: (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ).

وفي الحديث : أَنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى الْمُتَعَفِّفِ أَفْضَلُ مِنْهَا عَلَى السَّائِلِ الطَّوَّاف.